حفيدة إبراهيم ناجي تعيد اكتشاف سيرة شاعر الأطلال

سامية محرز لـ«العرب»: تمكنت من معرفة صاحبة قصيدة الأطلال الحقيقية

صوت أم كلثوم لا يزال يتردّد من مشارق العالم العربي إلى مغاربه، وعلاوة على دور الملحنين في ترسيخ ظاهرة "كوكب الشرق" الموسيقية، فقد كان للشعراء دور هام كذلك مثل أحمد رامي وإبراهيم ناجي صاحب قصيدة الأطلال، الذي نكتشف في هذا الحوار مع حفيدته الباحثة سامية محرز أسرارا جديدة عن هذه القصيدة وجدها الشاعر والطبيب.

مصطفى عبيد
كاتب مصري

شخوص متميزون مروا أمامنا. أدباء وشعراء ومُترجمون وأصحاب أقلام من شتى المناحي تركوا لنا نصوصا حيّة لا تموت، تنفذ داخل نفوسنا، وتحاور أرواحنا فتُضيئها سحرا وجمالا. ننفعل معهم ونعايش لحظاتهم المفعمة بالأحاسيس ونظن أننا نعرفهم حق المعرفة، لكن بعد سنوات يدفعنا الشغف للنبش في سيرهم لنصطدم بمفاجآت.

هذا ما حدث بعد صدور أحدث كتاب تناول سيرة الشاعر الراحل إبراهيم ناجي المعروف بشاعر "الأطلال"، قبل أيام عن دار الشروق بالقاهرة وحمل عنوان "إبراهيم ناجي.. زيارة حميمة تأخرت كثيرا" للكاتبة والباحثة سامية محرز أستاذة الأدب العربي بالجامعة الأميركية في القاهرة.

يعيد الكتاب اكتشاف شخصية الشاعر الرومانسي المولود عام 1897، والراحل في مارس 1953 عبر أرشيفه الشخصي. أوراقه غير المنشورة ومفكرته الصغيرة وصوره الفوتوغرافية وخطاباته وحكايات العائلة.

كتاب مختلف

تميز الكتاب بسمتين فارقتين تجعله يختلف عن الكتب السابقة التي تناولت سيرة الشاعر الطبيب. الأولى هي عاطفة العلاقة بين الكاتب وصاحب السيرة، فسامية محرز هي حفيدة الشاعر مباشرة عن طريق الأم. والسمة الثانية تتمثل في ما تضمنته الأوراق غير المنشورة من مفاجآت، أبرزها توثيق حكاية البطلة الحقيقية لقصيدة الأطلال التي غنتها المطربة أم كلثوم، بعد تكهنات متباينة عبر الأزمنة دارت بين الفنانة زوزو حمدي الحكيم وأخريات.

> حفيدة الشاعر تحاول تجاوز الصور الضيقة لمن يركزون في بحوثهم على الشاعر الرقيق ويتناسون الطبيب والكاتب

تقول سامية محرز في لقاء مع "العرب" إن الكتاب بمثابة رحلة تعارف بينها وبين جدها الذي توفي قبل مجيئها إلى الدنيا بعامين، فعرفته من خلال الحكايات والحواديت داخل الأسرة عن طريق أمها وخالتها قبل أن تتعرف عليه داخل الأسرة الكبيرة في المجتمع الثقافي.

قررت سامية محرز البحث في الأوراق الموروثة والمنتقلة من صاحب السيرة إلى خالتها ضوحية، ثم إليها بعد عبارة لافتة ومؤثرة قالها لها جمال الديب الراحل الغيطاني مطلع الثمانينات عندما سألها خلال زيارة لها عن سبب وجود صورة فوتوغرافية للدكتور إبراهيم ناجي في برواز كبير معلق في بيتها، فقالت له "إنه جدها" ففاجأها بقوله "إنك تشبهينه".

بعد ذلك تولّد لديها اهتمام وشغف يخفت حينا ويتوهج حينا آخر، فتتبعت سيرة جدها وغاصت في أوراقه وخطاباته لتكتشف جوانب خفية في حياته، بما يجعلها مأساة كاملة الأركان تسير على قدمين.

لم أكن أعرف جدي حتى درست أوراقه الخاصة

عانى الشاعر الطبيب الذي عمل في عدة إدارات حكومية في مصر خلال العصر الملكي، قبل ثورة يوليو 1952، من سوء الأحوال المالية والعوز الشديد والمرض رغم مواهبه وتفوقه العلمي.

تؤكد محرز في حوارها مع "العرب" أن الكتاب ليس سيرة للشاعر الرومانسي الكبير، وإنما هو زيارة جديدة لسيرته، بمعنى إعادة اكتشاف تعتمد على مادة جديدة هي الأوراق الخاصة.

وتقول "زيارتي تأخرت لأني كنت أقاوم منذ الصغر الكثير من توجيهات العائلة لي لتكرار الجد أو التشبه به بعد تخصصها في دراسة الأدب العربي، كانت العائلة تكرر أنني سأصبح مثل جدي، وكنت أقاوم ذلك فتخصصت في الرواية بدلا من الشعر، ولم أدرسه قط".

وجاءها التحول بعد أن تجاوزت عمره عند وفاته، إذ رحل وعمره 56 عاما، فحينها شعرت أن الوقت حان لتشن حملة تفتيش على أوراقه الشخصية ومسودات أشعاره، وذكريات عنه سبق أن تعرفت عليها مبكرا.

وردا على تصور البعض بوجود انحياز تجاه صاحب السيرة، مادام الكاتب هو أحد أفراد عائلته، تقول محرز لـ"العرب"، "لم أكن أعرف إبراهيم ناجي رغم أنه جدي، بل قاومت ذلك سنينا، لكن عرفته بعد عكوفي على دراسة أوراقه جيدا".

وتوضح أن الكتاب يمثل محاولة للاطلاع على حال المثقفين المصريين في مرحلة ما بعد الحب العالمية الثانية، وكيف كانوا حداثيين ومتابعين لكل طرح فكري وإبداعي في العالم.

البطلة الحقيقية

تؤكد سامية محرز أن الكتاب زاخر بالمفاجآت العديدة لكن حكاية البطلة الحقيقية لقصيدة الأطلال تمثل اكتشافا مهمّا، إذ رفض الشاعر التصريح باسمها خلال حياته، واختار لها رمز "ع. م"، فاجتهد المثقفون بعد رحيله في محاولة التعرف عليها لدرجة أن الشاعر صالح جودت ادعى أنه يعرفها حق المعرفة، وأن الحب كان من طرف واحد.

ووصل الأمر بأحد المثقفين أن كتب أن الشاعر صالح جودت أخبره قبيل وفاته بالاسم الحقيقي لبطلة القصيدة وهو عنايات محمود الطوير، ثم اكتشفت الباحثة – الحفيدة أنها أكذوبة، مشيرة إلى "انعدام التوثيق وسذاجة الحكي والاستخفاف بتاريخ الرموز الثقافية".

وتحكي محرز رحلتها للوصول إلى الحبيبة الأولى للشاعر، حيث عرفت من حفيد إحدى جارات الشاعر أن جدها تقدم رسميا، وهو طالب في كلية الطب، لخطبتها وهي علية الطوير وليست شقيقتها عنايات الطوير، كما زعم صالح جودت، لكن الطلب رفض، وتزوجت عام 1923 وسافرت مع زوجها إلى أوروبا ثم عادت بعد سنوات.

وتابعت المؤلفة قائلة "وجدت في أوراق جدي بتاريخ العاشر من ديسمبر 1946، أي بعد ثلاثة وعشرين عاما من الواقعة، إشارة منه إلى أن (ع) هاتفته، وطلبت أن يزورها وتحدثا بعد مرور السنين، وقالت له إن الذنب ذنبه، وعلق قائلا ليت الزمن يشهد علي وعليها".

كما ذكر إبراهيم ناجي في أوراقه في يناير 1947 اسمها كاملا علية عندما كتب عن وفاة شقيقتها وزيارته لها ليقول "لقيت علية من جديد.. ما أعجب الزمن. وكانت تبدي شيئا من التحفظ. لعنة الله على هذا التحفظ.. لقد كنت أنظر إليها كما لو كنت أنظر إلى شابة لم يتغير من معناها شيء".

وعلمت محرز من حفيد علية الطوير أنها توفيت في السبعينات من القرن الماضي، أي بعد ربع قرن من وفاة إبراهيم ناجي، وكانت في أواخر السبعينات من عمرها وعانت من الاكتئاب، وكانت تقول لنساء العائلة إن قصيدة الأطلال التي شدت بها أم كلثوم جمهورها وأبهرته كتبت في الأصل لها وعنها، لكنهن كن يسخرن منها.

ويقول مطلع قصيدة الأطلال: يا فُؤَادِي رَحِمَ اللَّهُ الهَوَى/ كَانَ صَرْحاً مِنْ خَيَالٍ فَهَوَى/ اسْقِنِي واشْرَبْ عَلَى أَطْلَالِهِ/ وارْوِ عَنِّي ظَامِئاً الدَّمْعُ رَوَى/ كَيْفَ ذَاكَ الحُبُّ أَمْسَى خَبَراً/ وَحَدِيْثاً مِنْ أَحَادِيْثِ الجَوَى/ وَبَسَاطاً مِنْ نَدَامَى حُلُمٍ/ هَم تَوَارَوا أَبَداً وَهُوَ انْطَوَى/ يَا رِيَاحاً لَيْسَ يَهْدَا عَصْفُهَا/ نَضَبَ الزَّيْتُ وَمِصْبَاحِي انْطَفَا/ وَأَنَا أَقْتَاتُ مِنْ وَهْمٍ عَفَا/ وَأَفِي العُمْرَ لِناسٍ مَا وَفَى/ كَمْ تَقَلَّبْتُ عَلَى خَنْجَرِهِ/ لاَ الهَوَى مَالَ وَلاَ الجَفْنُ غَفَا/ وَإِذَا القَلْبُ عَلَى غُفْرَانِهِ/ كُلَّمَا غَارَ بِهِ النَّصْلُ عَفَا.

أوجاع المثقف

طرح كتاب محرز جانبا من معاناة المثقف المصري في الأربعينات من القرن الماضي في ظل أوضاع اقتصادية صعبة، وكان ناجي يعمل طبيبا في وزارة الأوقاف، إذ نجد في مدوناته شكوى دائمة من أعباء الحياة في ظل الحرب العالمية الثانية وما تركته من آثار اجتماعية سيئة، ففي مايو 1944 كتب في مفكرته "لم أحصل على شيء. لا علاوة هذا العام. قسمنا مظلوم".

في العام التالي خفضوا راتبه من 52 جنيها إلى 36 جنيها فقرر الاستقالة، لكنه عاد عنها بعد فشله في العثور على عمل، وكتب في الخامس عشر من مايو سنة 1945 "لست حرا. عدت إلى العمل وكتبت صك مذلتي بيدي. عدت ولا مكتب ولا مكان ولا شيء. مرت عليّ أسوأ شهور حياتي".

كما تطرح الأوراق اعترافات نفسية للشاعر قال في إحداها "إن خدمة الحكومة علمتني الجبن"، وفي أخرى اتهم نفسه بالإسراف الأحمق، وفي الكثير منها نعى ضعف عوائد عمله ككاتب قصة أو مقالات نقدية أو ترجمات للصحف في ظل قسوة الحياة.

وأحد التساؤلات المهمة التي يطرحها الكتاب تخص أسباب عدم التفات الدارسين لسيرة إبراهيم ناجي لكتاباته النثرية، رغم أنها أكثر غزارة من كتاباته الشعرية.

وتوضح محرز أن الجميع يمر مرور الكرام على الأعمال النثرية، فيعددونها الواحد بعد الآخر بأخطاء فادحة في تواريخ نشرها، ويركزون على الشاعر الرقيق ويتناسون الطبيب والكاتب.

ومن بين كتب ناجي المهمة كتاب بعنوان "كيف تفهم الناس" صدر في ديسمبر سنة 1945 يضم بحوثا ومقالات تتعلق بعلم النفس وسيكولوجية الأخلاق وسيكولوجية الطفولة والمراهقة ونفسية الجماهير وسيكولوجية الحب.

وله كتاب آخر بعنوان "عالم الأسرة" صدر سنة 1947 تناول فكرة التربية والإصلاح والدستور الأخلاقي، فضلا عن رواية "زازا"، وهي رواية رومانسية صغيرة، بجانب كتاب غير مكتمل بعنوان "طبيب العائلة".

وتكشف سامية محرز في حوارها مع "العرب" أنها أبقت على الأخطاء في النصوص الأصلية للخطابات والأوراق دون تصحيح لأنها تعتبر أن التوثيق يلزمها بذلك، كما أن الأخطاء سواء كانت إملائية أو نحوية لها دلالات متعددة يمكن للباحث أن يوظفها في قراءة الوثيقة على مستويات متعددة.

وسامية محرز أستاذة للأدب العربي، ومديرة لمركز دراسات الترجمة بالجامعة الأميركية في القاهرة، وصدر لها العديد من الكتب والدراسات باللغة الإنجليزية مثل "دراسات في أدب نجيب محفوظ" عام 1993، و"الحروب الثقافية في مصر" عام 2008، و"أطلس القاهرة الأدبي" عام 2010، و"حياة القاهرة الأدبية" عام 2011، ويعد كتابها عن إبراهيم ناجي أول عمل يصدر لها باللغة العربية.

جلال برجس: أملي أن تحدث الرواية التغيير

الشارقة - من عالم هندسة الطيران إلى عالم الأدب ومن الشعر إلى الرواية، ومن العالم العربي إلى بقية البلدان الغربية يحلّق الشاعر والروائي الأردني جلال برجس في سماء العالمية بفضل تتويجه بالجائزة العالمية للرواية العربية "البوكر العربية" هذا العام عن روايته "دفاتر الورّاق"، هذه الجائزة التي تهدي لصاحبها فرصة ترجمة عمله من العربية إلى الإنجليزية وطباعتها ونشرها لتصل بلغة شكسبير إلى القراء في مختلف بلدان العالم.

عن هذه الرواية وغيرها من المواضيع المتعلقة بالثقافة والمثقفين والأوضاع الراهنة في العالم العربي يتحدث جلال برجس في حوار معه على هامش مشاركته في الدورة الأربعين لمعرض الشارقة الدولي للكتاب، كاشفا خلاله أنه سيحل ضيفا على تونس الأسبوع المقبل ضمن فعاليات معرض تونس الدولي للكتاب، معبرا عن سعادته بهذه الزيارة التي ستوفر له فرصة اللقاء مع القراء والمبدعين التونسيين. كما يذكر أنه وقع منذ بضعة أيام عقدا سيتم بموجبه تحويل الرواية إلى عمل درامي تشارك فيه نخبة من أهم الممثلين النجوم في العالم العربي.

وفي سؤال عن انطلاق روايته "دفاتر الوراق" من وضعية صاحب الكشك هذا "الورّاق" الذي هدم لتعويضه بمركز تجاري، يتناول وضعية المثقفين اليوم أو الكتاب الورقي عموما ليصل إلى مسألة أشمل تتعلق باستغلال النفوذ من جهة وأوضاع المهمّشين في المجتمع من جهة أخرى، ليقول "فعلا أنا انطلقت من حادثة هدم هذا الكشك في حي وسط عمان وأردتها أن تكون معادلا موضوعيا أو رمزيا لحال الثقافة في العالم العربي، التي أصبحت خارج اهتمام المؤسسات الرسمية ولا ترتقي إلى المستوى الذي يجعل الكاتب يتصدر قائمة العيش الإنساني ويأخذ حقه الطبيعي كضمير للأمة مثلما تقول المقولة التقليدية".

ويشدّد برجس على أنه في هذه المرحلة من التشتت الذي نعيشه في العالم العربي، نحن في حاجة اليوم إلى أن يكون المثقف الضمير الحقيقي للمجتمع وليس هناك ضمير أكثر صدقا في مقاربة الواقع اليومي والأزمات أكثر من ضمير الكاتب، فكشك الورّاق هو معادل رمزي لحال الثقافة العربية.

وحول اختياره مهنة الوراق بالذات، يقول الكاتب "الوراقة مهنة كلاسيكية ونحن نشهد اليوم رقمنة العالم، وأنا لا أنكر ما لهذه الرقمنة من إيجابيات لكنها أيضا تحمل الكثير من السلبيات أهمها تشييء الإنسان وإزالته عن مساره الطبيعي الإنساني الآدمي ومن أخطر الأشياء أن يتحول الإنسان إلى مجرد رقم ضمن قائمة الديجيتال. وبإزالة الكشك فأنا كأني أقرع الجرس وأطلق صرخة لأتساءل ما الذي سيحدث لو أن المبنى الثقافي العربي أزيل برمته، طبعا سنشقى".

ويضيف "ثم، من الذي أزال الكشك؟ هي الطبقة الفاسدة الموجودة في كل البلدان العربية هذه الطبقة التي ترى في الثقافة تهديدا لمصالحها الاستثمارية المتعلقة بالمال والتي لا علاقة لها بالجانب الإنساني".

وعن تأثير ما يحصل مؤخرا من تحولات في المجتمعات العربية عليه ككاتب، يقر برجس بذلك. ويقول "كان بإمكاني أن أعود إلى التاريخ وأكتب رواية تاريخية أو أكتب عن أمور مبهجة مثل الحب والعشق وغيرها، لكنني كمراقب عن كثب لحال الشارع العربي ولحياتنا وكقارئ جيد أيضا، وجدت أنه من المناسب الآن أن أتطرق إلى وضع الإنسان العربي في هذه المرحلة التي تشهد تغوّل الفساد. فالعالم العربي يعاني من هذه الطبقة الطفيلية التي تعيش في زاوية مظلمة وتدير العالم وبالتالي نحن نغرق في أزمات كبيرة وهذا موجود في العالم العربي كله. لذلك صرنا نلاحظ للأسف موجة فيها نزوع نحو التخلص من الأوطان والتوجه نحو العيش في أوروبا وأميركا فقد بات الإنسان العربي يحلم بالفردوس ولكنه في الواقع ليس الفردوس. والسؤال لماذا لا يصبح عالمنا العربي هو الفردوس؟".

الهجرة باتت قضية عربية بامتياز ويرى برجس أنها سوأة الواقع. فالإنسان العربي يريد أن تتوفر له على الأقل الحاجيات الإنسانية الثلاث وهي المأكل والملبس والمسكن، لكنها غير متوفرة بالشكل الكافي. والمؤسف أكثر أن حرية الكائن الإنساني ليست متوفرة بشكل حقيقي في العالم العربي.

> الرواية تطرح الأسئلة ولا تقدم إجابات وبالتالي الإجابات مرتبطة بالقارئ والقارئ هو الأهم في هذه المنظومة الإنسانية

نعلم جيدا أن الرواية تطرح أسئلة أكثر من أن تقدم إجابات، وجلال برجس أراد ربما من خلال هذه الرواية أن يرمي حجرا في البرك الآسنة، يعلق الكاتب "بالطبع المتعارف عليه هو أن الرواية تطرح الأسئلة ولا تقدم إجابات وبالتالي الإجابات مرتبطة بالقارئ، والقارئ هو جزء من هذه المنظومة الإنسانية وهو العنصر الأهم فيها. لذلك فالرسالة متوجهة إلى الطرفين: القارئ الإنسان الضحية والمتأذّي من كل ما يحصل فأنا حين أطرح هذه الأسئلة أحفزه ليبحث عن إجابات مع أملي في أن تحدث الرواية التغيير".

ويضيف "على صعيد السلطة العربية فأنا حين أضيء هذه الزوايا المعتمة فذلك لأنني أؤمن بقدرة الرواية على استشراف المستقبل بناء على العناصر المحيطة بنا، فأنا أقرع الجرس للطرفين إذ علينا أن ننتبه للمخاطر القادمة ونستعد لتجاوزها . هناك الكثير من الأحداث الكارثية التي مرت ولم نكن نتوقعها رغم توفر الكثير من العناصر التي لو تأملناها لكنا قادرين على تفادي القادم. فالعلاقة مبتورة بين الإنسان العربي والسلطة ولا ندري هل يمكن في المستقبل أن يلعب الصقر مع الحمام (مبتسما).. لا أدري، لا أظن"

هل يمكن في المستقبل أن يلعب الصقر مع الحمام